

العبد و"الإنسان الكامل" من منظور ابن عربي

The slave and the "perfect human being" from Ibn Arabi's perspective

د. محمد الغريسي (تونس)

باحث بمدرسة الدكتوراه – جامعة الزيتونة تونس

ghrissimohamed22160187@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/02/18 تاريخ القبول: 2025/03/15 تاريخ النشر: 2025/03/25

ملخص:

تروم هذه الورقة العلمية تسليط الضوء على شخصية حديثة في قيمة محيي الدين ابن عربي ببيان نسبه وعلمه وبعضها من رحلاته كما تروم الكشف عن رؤية هذا العلم للإنسان بما هو في نظره نسخة عن الحق تعالى وهو أصل العالم إذ إن الله تعالى يتجلى عن طريق أسمائه لا عن طريق ذاته والإنسان يمكنه أن يتحرر بأن يحقق مزيدا من العبودية لله بمعرفته معرفة شهودية والتحقق من أسمائه وصفاته والتخلق بها، وتحقيقا لهذا الغرض سنعول على المنهج الوصفي والتحلي من أجل الوقوف على أبرز الحقائق العلمية والمعرفية المتصلة بالموضوع. الكلمات المفتاحية: ابن عربي، العبد، الإنسان الكامل، التحقق، التخلق.

Summary:

This scientific paper aims to shed light on a unique personality in the value of Muhyiddin Ibn Arabi by explaining his lineage, knowledge, and some of his travels. It also seeks to reveal the vision of this knowledge for man, which in his view is a copy of the Almighty Truth, which is the origin of the world, since God Almighty is revealed through the means of His names, not through Himself, and man can be liberated by achieving more servitude to God by knowing Him with witness knowledge and verifying His names, attributes, and creation with it. To achieve this purpose, we will rely on the descriptive and analytical

approach in order to identify the most prominent scientific and cognitive facts related to the subject.

Keywords: Ibn Arabi, the slave, the perfect human being, verification, creation.

مقدمة:

يلقي هذا البحث الضوء على شخصية فذة في التاريخ الإسلامي ألا وهي شخصية معي الدين بن عربي (ت638هـ/1240م) والملقب بالشيخ الأكبر، وعليه يجب توضيح رؤية ابن عربي للعبد وللإنسان الكامل وبيان تصوّره إزاء الموضوع باعتباره أحد مباحث أصول الدين. ويكتسي البحث أهمية بالغة لاعتبارين اثنين؛ أولهما حاجة المسلم لمعرفة إمكان تحقيق الكمال، وثانيهما شخصية ابن عربي صاحب الصّولات والجولات في شتى الفنون والعلوم، سيما وأنّه تميّز بآرائه في الفلسفة الإلهيّة والكون والنفس والإنسان، وبهذا يمثّل نقطة انعطاف داخل التراث الصوفيّ الإسلامي لأنّ من سبقوه أو عاصروه اقتصرت بحوثهم على الوصايا والمواعظ والرقائق والمجاهدات التي ينبغي على الصّوفي المبتدئ أن يأخذ بها للوصول إلى مرحلة الكشف. فمن هو ابن عربي؟ وفيما تتمثّل رؤيته للعبد و"الإنسان الكامل"؟

أولاً: ابن عربي: اسمه وعلمه.

ابن عربي هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الطائي الحاتمي من ولد عبد الله بن حاتم أخو الصّحابي الجليل عدي بن حاتم، (الذهبي، 1985، ص3/163)¹ يكتّى بأبي عبد الله ويلقب بمعي الدين ويعرف بابن العربي في عصره وعند المغاربة والمشاركة بابن عربي تمييزاً بينه وبين ابن العربي الفقيه.

ولد بن عربي في مدينة مرسية بالأندلس² في السّابع عشر من شهر رمضان سنة 560هـ/1165م، وتوفي سنة 638هـ/1240م في مدينة دمشق، وقد تحدّث هو عن مولده في أثره الموسوم بـ "شجرة الكون"، فقال ما نصه: "وفي زمان المستنجد بالله ابن المقتفي (1124 م/1170م)... ولدت أنا بمرسية في دولة

(1) ابن عبد الله بن سعد بن الحشر بن امرئ القيس بن عدي، الأمير الشريف... صاحب النبي ﷺ ولد حاتم طي، الذي يضرب بجوده المثل. وقد عدي على النبي ﷺ في وسط سنة سبع، فأكرمه واحترمه.

(2) منطقة مرسية بالإسبانية (Región de Murcia): منطقة تقع في جنوب شرق إسبانيا.

السلطان أبي عبدالله محمد بن مردنيش بالأندلس... فكنت أسمع الخطيب يوم الجمعة يخطب بالمسجد باسم المستنجد بالله بن المقتفي". (ابن عربي، 1985، ص ص12-13)

ينحدر ابن عربي من أسرة نبيلة وعريقة، ولقد كان أعمامه وأخواله من أصحاب القلوب المتعطّشة لعالم الأنفاس، (ابن عربي، 1999، 1/185) وربما كان لهؤلاء أثر في تربيته ونشأته وتكوينه، وهذا ما نلاحظه من خلال تعدّد رحلاته العلميّة ومنها رحلاته بالمغرب الإسلامي؛ حيث كان له لقاء مع أبي الوليد بن رشد (520هـ/595 هـ) قاضي قضاة قرطبة. وقد تحدّث هو عن هذا اللقاء في أثره "شجرة الكون" ونقل طرفا من الحوار الذي دار بينهما (ابن عربي، 1985، ص ص22-23) حيث كان التّمييز باديا على ابن عربيّ فيما بدا القلق والحيرة غالبا على ابن رشد وإحساسه بافتقاره للمعرفة والإدراك الذين يمتلكهما هذا المتوغّل في المعرفة الذوقيّة.

وفي عام 568 للهجرة تركت أسرته مرسية وانتقلت إلى أشبيلية عقب الاضطرابات العنيفة التي حدثت لمرسية حيث خضعت لحكم الموحّدين (بلاطوس، أسين، 1970، ص8) بعد أن كانت تحت حكم محمّد بن مردنيش. وفي أشبيلية قرأ القرآن بالقراءات السبع كما بيّن هو في فتوحاته. ويقول هو نفسه في "محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار" إنّه: لم يترك كتابا إلّا قرأه وممّا قرأ السيرة لمحمّد بن إسحاق ومسنّد أحمد بن حنبل وصحيح مسلم وصحيح البخاريّ، فكان كما يقول عن نفسه: "نفرغ قلوبنا من النّظر الفكريّ ونجلس مع الحقّ تعالى بالذّكر على بساط الأدب والمراقبة والحضور والتهيؤ لقبول ما يرد علينا منه تعالى حتى يكون الحقّ تعالى يتولّى تعليمنا على الكشف والتّحقيق". (ابن عربي، 1999، 8/1)

وفي عام 586م التقى ابن عربي بعض أعلام التّصوّف ومنهم موسى البيدراني وأبي عمران موسى بن عمران الميرتلي وأبي العباس الميني. وهكذا أتم تكوينه الشرعيّ والصوفيّ. (ديركي، هيفرو، 2008، ص554) ولم يكتفي ابن عربي بالترحال في الأندلس بل حطّ الرّحال في شمال إفريقيا فوصل تونس عام 591هـ وقرأ كتاب "خلع النّعلين" لأبي القاسم بن قسي، وذكر أنّه رأى الخضر عليه

السّلام،(ابن عربي، 1999، 241/1) فتونس تعتبر بالنّسبة إلى الشيخ الأكبر الفضاء الميمون وباب الفتح الرّبانيّ، مركز الولاية ومصدر كلّ غاية، إذ جاءه فيها الخضر معلّم الصّوفيّة وأستاذ العلم اللّدي، حيث يروي ما حدث له عندما جاء إلى تونس لرؤية الشّيخ عبدالعزيز المهدي قائلا: "اتفق لي مرّة أخرى أنّي كنت بمرسى تونس في مركب في البحر، فأخذني وجع في بطني وأهل المركب قد ناموا، فقمّت إلى جانب السّفينة وتطلّعت إلى البحر فرأيت شخصا على بعد في ضوء القمر وكانت ليلة البدر وهو يأتي على وجه الماء حتى وصل إليّ، ووقف معي ورفع قدمه الواحدة واعتمد على الأخرى، فرأيت باطنها وما أصابها بلل، ثمّ اعتمد عليها ورفع الأخرى فكانت كذلك، ثمّ تكلم معي بكلام كان عنده ثمّ انصرف يطلب المغارة مائلا نحو تلّ على شاطئ بيننا وبينه مسافة تزيد على ميلين، فقطع تلك المسافة في خطوتين أو ثلاث، فسمعت صوته وهو على ظهر المغارة يسبح الله تعالى وربّما مشى إلى شيخنا جراح ابن خميس الكتاني وكان من سادات القوم مرابطا بمرسى عبدون، وكنت جئت من عنده بالأمس من ليلتي تلك، فلمّا جئت المدينة لقيت رجلا صالحا فقال لي: كيف كانت ليلتك البارحة في المركب مع الخضر؟ ما قال لك؟ وما قلت له؟"

كما رحل ابن عربي أيضا إلى المشرق و زار مكّة سنة 598هـ و كان ذلك إثر رؤيا شهوديّة؛ فقد رأى العرش الإلهيّ تشدّه أعداد لا تحصى من أعمدة النّار الملتهبة ومنحى العرش الذي يخفي كنوزه التي ليست غير آدم الرّوحاني، ترمي بظلّ يحجب نور ذلك الذي يجلس على العرش ويجعل تلك النّار قابلة للنّظر، وفي لطافة هذا الظلّ تسود طمأنينة يعجز اللّسان عن وصفها وثمّة طائر أجمل من كلّ طيور السّماء يحيط بالعرش من جميع الجهات وهو الذي يبلغ الرائي الأمر بالرحيل إلى المشرق وسيكون هو رفيقه ومرشده السّماوي. (كوربان، هنري، د.ت، ص65)

ولارب أن هذا التطواف شرقا وغربا وغيره كثير حيث لا يسعنا التعرّض لجميع رحلاته، ومهما يكن من أمر فإنّ تراث ابن عربيّ أقلّ ما يقال عنه أنّه غزير كمّا وكيفا بل أجمع الكتاب والباحثون أنّ ابن عربي كان من أخصب

المؤلفين عقلا وأجزلهم عبارة وأوسعهم خيالا، وهذا ما تشهد به آثاره ومصنفاته بعيدا عمّن أيده وعمّن وصفه بالكفر والزندقة وانتهى السيوطي إلى القول بخصوصيّة ابن عربي وكتاباتهِ وأنّ العوامّ لا يجب أن ينظروا في كتبه.

ثانيا: العبد و"الإنسان الكامل"

لئن بدأ تصوّف القرنين الأولين للهجرة في شكل زهد وورع تمثّل أساسا في أفراد بعينهم فإنّه لم يلبث حتى أضحى اتّجاها مرتزا على عرصات مدعّمة بنصوص القرآن والحديث يسمى "علم الباطن" قد تجسّد في أبي الفيض ثوبان إبراهيم المشهور بذي النون المصري (ت958هـ) ورابعة العدوية (ت811هـ) وغيرهما، وتطور التصوف وانتشر في المائة الثالثة للهجرة؛ حيث اخذ البعض يدون أقوال أولئك المشايخ ويسجل مناقبهم ويعدّد كراماتهم ممّا مهد أساسا لتدوين علم التصوف وظهرت العديد من المصنفات وكان من أوائل من كتب في التصوف من العلماء:

➤ الحارث المحاسبي، المتوفى سنة 243 هـ، ومن كتبه: بدء من أناب إلى الله، وأداب النفوس، ورسالة التوهم.

➤ أبو سعيد الخراز، (ت277هـ)، ومن كتبه: الطريق إلى الله.

➤ أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، (ت378هـ)، وله كتاب: اللمع في التصوف.

➤ أبو بكر الكلاباذي، (ت380هـ)، وله كتاب: التعرف على مذهب أهل التصوف.

➤ أبو طالب المكي، (ت386هـ) وله كتاب: قوت القلوب في معاملة المحبوب.

➤ أبو قاسم القشيري، (ت465هـ)، وله الرسالة القشيرية، وهي من أهم الكتب في التصوف.

➤ أبو حامد الغزالي، (ت505هـ)، ومن كتبه: إحياء علوم الدين، الأربعين في أصول الدين، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، بداية الهداية، وغيرها الكثير. ويعد كتاب إحياء علوم الدين من أشهر -إن لم يكن الأشهر- كتب التصوف ومن أجمعها.

إنّ هذه المؤلّفات وغيرها سيما ما كتبه ابن عربي كشفت أنّ مولد الإنسان عند المتصوف هو خروج إلى العالم الروحي يصاحبه شوق وجودي فيّاض للمطلق قصد الوصول إليه أو التجلي فيه والاتحاد به. والطريق الموصلة أو السالكة هي مراتب تخرج الإنسان من العالم الظاهر إلى عالم الحقيقة أو من العالم السفلي إلى العالم الإلهي السّماوي فهو صعود وتحلل من مفاصد وحواس الدّنيا وعالم الشهادة إلى عالم الروح والرقى والغيب. وإنّ هذا الصعود في المراتب والسلوك في مسالك المجاهدة والتعبّد هو رؤية صوفية تقدّم تصورا فريدا بعيدا عن النظرة السطحيّة للإنسان كما أنّها رؤية تبرز حجم ومكانة الإنسان في الوجود والإمكانات الأنطولوجية المتوفرة له بصفته فردا أولا ليسلك هذا الطريق وحيدا فريدا سلاحه العبادة والشوق إلى المطلق أي الله، فالصوفية كمبحث من مباحث الفكر الإسلامي تقدّم رؤية متقدّمة وثريّة لمسألة الإنسان من جهة وجوده وحرّيته وتسامحه وتفردّه وعلاقته بالموجودات الأخرى وخاصّة بالموجود الأوّل والأكبر وهو الله تعالى.

يحتل الإنسان والفرد عموما مكانة سنيّة في الإنتاج الفكري والفلسفي العربي والإسلامي عموم منذ ظهور الاعتزال إلى عصر محي الدين بن عربي واتباعه ومريديه حيث يضع ابن عربي مسألة الإنسان في مكان لم يسبق لأي مفكر أو فيلسوف مسلم أن وضعه فيها بل صارت هذه القضية مركزا للتفكير والتأمّل الصوفي لدى ابن عربي إذ يجعله أصل العالم ومركزه ليتحوّل العالم نفسه إلى الإنسان الأكبر حيث توصيف فيلسوفنا.

إنّ أهمّ ما يسم رؤية الصوفية للإنسان ربطهم له بمسألة المعرفة عبر إبرام الصلة المعرفية المباشرة بين الموجود وواجب الوجود فقالوا "بالشهود الحضور" أي لقاء الإنسان الموجود بموجده عبر الحضور المباشر ولهذا كان اليقين حسب ابن عربي على درجات ثلاث؛ أولها: علم اليقين وثانيها: عين اليقين وثالثها: حق اليقين، وهي درجات في علوم التجلي بما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب فيرتقي الفرد المتعبّد عبر المجاهدة والتجرد من العلاقات المادية الحسية ليصل أخيرا إلى و الكشف الأعظم المعبر عنه بمطالعة الجمال الإلهي وهو على ثلاثة مراتب بعضها أعلى من بعض المرتبة الأولى شهود الحق بالحق في المظاهر الخلقية وهذا الشهود

مطالعة عيانية بالبصر الحسى وذلك لأهل البداية في طريق الحق بأبصارهم لأن الله تعالى قد أكسب أبصارهم نوراً إلهياً فيه يروونه لا بنفوسهم وهذا النور الإلهي الذي أشرت إليه هو من فيض (كنت سمعه وبصره) الحديث وعلامة من كمل في هذا المشهد أن يحجب الله عنه الأكوان جميعها فلا يرى شيئاً سوى الله تعالى ودون ذلك ثلاث مشاهد في هذه المرتبة أحدها أن يرى الله بعد أن يرى الأشياء وإلى ذلك أشار القائل في قوله: (ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله بعده) المشهد الثاني في أن يرى الله عند رؤية الأشياء وإلى ذلك أشار القائل بقوله: (ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله معه) أو قال (فيه) والمشهد الثالث أن يرى الله قبل رؤيته للأشياء وإلى ذلك المعنى أشار القائل بقوله: (ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله).

تنقسم مرتبة الشهود بدورها إلى مستويين:

المستوى الأول: "الشهود خلف حجاب وهو شهود الحق من خلف حجاب المعرفة والإيمان حيث يقول ابن عربي مؤولاً الحديث النبوي "فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، أي أحضر في نفسك أنه يراك وهو نوع آخر من الشهود من خلف حجاب تعلم أن معبودك يراك من حيث لا تراه ويسمعه". (ابن عربي، 1999، 3/309)

المستوى الثاني: "الشهود الرفيق" وهو تأويل لابن عربي لقوله تعالى: "وهو معكم أينما كنتم"، فالحق هو رفيق العبد على الحقيقة توازي رفقة الخالق لمخلوقاته، ولكن الإنسان حسب ابن عربي حجب عن هذه الرفقة ولا يشهد الرفيق إلا في الموت بمعنى آخر أنّ الشهود الرفيق هو الموت، وإذا اعتمدنا قراءة محي الدين ابن عربي في لفظة العبد ودون الخوض في تفاصيل معانيها اللغوية فإنّ صاحب الفتوحات المكيّة توسعوا في شرح اللفظ ليشمل كلّ مخلوق خلقه الله سواء كان الملائكة أو إنساناً أو حيواناً أو جماداً أي أنّ العبد بعبارة صوفيّة هو كلّ ما سوى الله حيث يقول ابن عربي: "وأعني بالعبد العالم كله والإنسان". (ابن عربي، 1999، 2/412)

يخلص المتتبع لموقف ابن عربي من مسألة الإنسان والعبد وحرّيته إلى أنّ الإنسان في عبودية أزلية يكمن في طيبتها معنى الحرية الحقيقية إذ العتق من العبودية هو كمال العبودية؛ فالعبد بهذا المعنى لا يمكنه أن يتحرّر تحرراً أنطولوجياً إلا ببلوغه إلى مرتبة العبودية؛ فاذا ما بلغ العبد هذه المرتبة يصبح "حقاً

كلّه" وهذا التحرّر هو تحرر شهوديّ لا واقعيًا حسيًا ذلك أنّ حركة الإنسان في التاريخ تجعله عبداً مؤقتاً للأسباب ليصل في المراتب العليا لعبادته إلى عبادة الواحد الأحد من خلف حجاب تلكم الأسباب ومن هنا تتحقّق حرّيته وإنسانيته.

ثالثاً: التحقّق والتخلّق بأسماء الله طريق الكمال

يعتبر وجود الله تعالى أظهر حقيقة في هذا الوجود، وأول شعور يشرق في عمق الإنسان إذا تأمل في نفسه وفي العالم من حوله، شعوره بوجود الله المهيمن على العالم كلّه والمدير له والذي يتصرف فيه بالحياة والموت والخلق والفناء والتغيّر والتطوّر والحركة والسكون وجميع أنواع التغيّرات المحكمة التي تجري فيه، فالإنسان يشعر بهذه الحقيقة وهي وجود الله، ويؤمن بها إيماناً داخلياً عميقاً، سواء استطاع أن يقيم دليلاً عقلياً برهانياً على صدق هذا الشعور أو لم يستطع.

إن الله عزّ وجلّ تعرّف إلى خلقه بأسماء تليق بجلاله فيحسن المؤمن معرفتها وحفظها تبركاً بألفاظها وتلذّذاً بذكرها وتعظيماً لقدرها. ويتم النفع بأسماء الله تعالى على الوجه الآتي:

- 1- فهم أسمائه تعالى بحيث يدرك معانيها.
- 2- الاعتقاد بالقلب وجود معناها في ذات الله تعالى.
- 3- التفكّر بأسمائه تعالى ومشاهدة آثارها في الأكوان.
- 4- استعظام أسماء الله تعالى حتّى تحدث في قلب المؤمن خشية وخوفاً من الله.

5- السّعي في اكتساب ما يليق بالإنسان من تلك الأسماء والصفّات والتخلّق بها والتحليّ بمحاسنها كالرحمة والعدل وغيرها وبذلك يصبح المؤمن ربانياً. الأسماء الحسنى هي التي يدعى الله بها وهي التي وردت في الكتاب والسنة تقتضي المدح والثناء بنفسها فالله تعالى سمّي نفسه بأسماء كثيرة جعلها أعلاماً على ذاته المقدّسة منها ما أنزلها في كتابه ومنها ما علمها رسوله ومنها ما استأثر به في علم الغيب عنده. فأما ما جاءت به آيات الذكر الحكيم فمنها قوله تعالى: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا

إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ. (الحشر، 24)

وهكذا ثبت أن الله هو السَّلام والمؤمن والملك والقدوس...أما ما أثبتته الأحاديث الشريفة فمن قبيل: "اللهم باسمك أحيا وأموت". (مسلم، حديث رقم 2711) هذا وقد ورد في الصحيحين: أن لله تسعة وتسعين اسما؛ كما في صحيح البخاري: "لله تسعة وتسعون اسما، مائة إلا واحدا، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر". (البخاري، 6410) وللعلماء كلام مطوّل حول هذا الحديث من جهة حصره لعدد الأسماء وجعلها تسعة وتسعين ومن جهة دلالة قول النبي "لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة".

ومعنى الإحصاء أكده العلماء بأنّه يفيد التخلّق بهذه الأسماء و لا يعني حصر وحفظ عددها، وذهب آخرون إلى أنّ أسماء الله تعالى ليست محصورة في هذا العدد واستدلّوا بما جاء في حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أصاب أحدا قطّ همّ ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علّمته أحدا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهب همّي، إلاّ أذهب الله همّه وحزنه، وأبدله مكانه فرحا". (أحمد، 3548) ونقل النووي في شرحه لصحيح مسلم أنّ العلماء اتّفقوا على أنّ هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى فليس معناه أنّه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتّسعين وإنّما مقصود الحديث أنّ هذه التسعة والتّسعين من أحصاها دخل الجنة فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء. (النووي، 1392هـ، 17/5).

وبعد هذا العرض نوّكد أنّه ليس لابن عربيّ منهج واضح في دراسة أسماء الله تعالى وصفاته فهو يرى أنّ مذهب من نزّه الحقّ سبحانه وتعالى ما وصل إلّا لإثبات الصّفات، فيقول: "فاقتضى حكم هذه القوّة أن لا مماثلة بيننا وبينه سبحانه من وجه من الوجوه إلّا استنادا إليه في إيجاد أعياننا خاصة وغاية ما أعطى التنزيه إثبات النسب له بنا لما نطلبه من لوازم وجود أعياننا وهي المسمّى بالصّفات"، (ابن

عربي، الفتوحات، 290/7) وأمّا القائلون بأنّ الصّفات والأسماء زائدة على الذات حكموا على الله بالافتقار إليها وهذا لا يصحّ في حقّه سبحانه.

يعتبر ابن عربي أنّه من السفسطة وقلة العلم وضيق النّظر القول بأنّها هي هو أو هو غيرها، فإذا قلنا: ماهي هو ولا هي غيره كان خلفا من الكلام وقولا لا روح فيه يدلّ على نقص عقل قائله وقصوره في نظره أكثر من دلّالته على تنزيهه. ويرى بأنّ من قال: إن صفاته وأسماءه عزّ وجلّ ليس لها وجود قد وقعوا في العدميّة "وإن قلت ماهي هو ولا وجود لها وإنّما هي نسب والنّسب أمور عدميّة جعلنا العدم له أثر في الوجود وتكثّرت النّسب لتكثّر الأحكام التي أعطتها أعيان الممكنات وكذلك الذين لم يختاروا أيّا من هذه الآراء الكلاميّة فهم معطلّة فإن "لم نقل شيئا من هذا كلّه عطّلنا حكم هذه القوّة النظريّة".

يصرّح ابن عربيّ بوهم من يزعم أنّه وصل إلى مخرج لهذه الطّروحات الكلاميّة لموضوع الأسماء والصّفات فيشير إلى تكامل الآراء التي تنحصر بين الشّرع والعقل لذلك تراه يقول: "إن قلنا: إنّ الأمور كلّها لا حقيقة لها وإنّما هي أوهام وسفسطة لا تحوي على طائل ولا ثقة لأحد بشيء منها لا من طريق حسّي ولا فكريّ عقليّ فإن كان هذا القول صحيحا فقد علم، فما هذا الدّليل الذي أوصلنا إليه؟ وإن لم يكن صحيحا فبأيّ شيء علمنا أنّه ليس بصحيح؟ فإن عجز العقل عن الوصول إلى شيء من هذه الفصول رجعنا إلى الشّرع ولا نقبله إلّا بالعقل والشّرع فرع من أصل علمنا بالشّارع. (ابن عربي، الفتوحات، 290/7)

وينتهي ابن عربيّ إلى أنّ القياس العقليّ لا يصحّ في الإلهيّات وأنّ العلوم العقليّة والمنطقيّة عاجزة على البرهنة على وجوده سبحانه وتعالى، فكيف نستدلّ بالفرع على الأصل؟ فتلك منقصة لذات كاملة، فإذا كنّا قد عجزنا عن معرفة الأصل فنحن عن الفرع وثبوته أعجز.

وهكذا يظهر أنّ ابن عربيّ انتهى إلى مرحلة العجز عن الإدراك وذلك من خلال تصريحه المباشر بعجز جميع المناهج في البحث عن حقائق الأسماء والصّفات بكلّ الطّرق مشوشة وكلّ المناهج قاصرة عن الإحاطة بكنه الذات وصفاتها وما على المسلم سوى الإيمان بها إيمان العجائز بعيدا عن طرق أبواب

النَّظَر والفلسفة والمنطق وربّما يكون العجز عن الإدراك إدراك. وهكذا انتقل بنا ابن عربيّ من السّؤال الذي شغل علماء الكلام والمتمثّل في: ماهي الصّفات الواجبة في حقّه تعالى؟ وهل يمكن حصرها؟ إلى الإجابة عليها بمنطق بديهيّ وهو العجز عن الإثبات له لأنّه هو مثبت وجودنا وليس من حقّنا ولا يجوز في حقّه أن نثبت له شيء لم يخبرنا هو بنفسه عنه.

ينتقل ابن عربيّ بطرح جديد للذّات الإلهيّة حاصلها أنّ الله عز وجلّ هو لنفسه وبنفسه ولا شيء زائد عنه بل هو الله العالم الحيّ القادر الخبير كلّ ذلك لنفسه لا بأمر زائد على ذاته إذ لو كان ذلك بأمر زائد على نفسه وهي صفات كمال، لا يكون كمال الذّات إلّا بها. وينتهي إلى نعت المتكلّمين بالشّرك لما قاموا به من التجيّي على الذّات الإلهيّة حيث يقول: "وكلّ حكم يثبت في باب العلم الإلهيّ للذّات إنّما هو للألوهيّة وهي أحكام ونسب وإضافات وسلوب، فالكثرة في النّسب لا في العين وهنا زلّت أقدام من أشرك بين من يقبل التّشبيه وبين من لا يقبله عند كلامهم في الصّفات واعتمدوا في ذلك على الأمور الجامعة التي هي الدّليل والحقيقة والعلة والشّروط وحكموا بها غائبا وشاهدا؛ فأما شاهدا فقد يسلم وأما غائبا فغير مسلم". (ابن عربي، الفتوحات، 1/69)

ولمّا كانت أسماء الله تعالى كثيرة حيث لا يمكن حصرها بعدد معيّن وتفاديا لهذه الكثرة أرجعها ابن عربيّ إلى الاسم الجامع الله لأنّه الدالّ على جميع حقائق الأسماء الباقية وأوضح أنّ "أئمة الأسماء كلّها عقلا وشرعا سبعة ليس غيرها وما بقي من الأسماء فتبع لهؤلاء وهي الحيّ العليم المرید القائل القادر الجواد المقسط. وأسماء الله الحسنی عنده على ضربين: أحدها استأثر الله بها في علمه والآخر علّمه عباده والقسم الذي علمه عباده ينقسم إلى قسمين: أحدها يعرفها العامّة والآخر يعرفه الخاصّة كالاسم الأعظم.

ومهما يكن من أمر فأسماء الله الحسنی جميعها يمكن تحقّقها والتخلّق بها إلّا الاسم الجامع (الله) يقول ابن عربيّ: "وللعبد بأسماء الحقّ تعلّق وتحقّق وتخلّق"، (ابن عربي، كشف المعنى عن سرّ أسماء الله الحسنی، ص24) فالتعلّق هو الافتقار إلى أسماء الله الحسنی في الإطلاق من حيث هي دالّة على الذّات لا من حيث هي، وإلّا لكان التوجّه إلى الاسم لا المسمّى. أمّا التحقّق فهو الإلمام والإحاطة بهذه

الأسماء الحسنى ومعرفة معانيها والتخلّق هو أن ينسب العبد إلى نفسه ما يليق بها من النقص والحاجة والافتقار إلى المولى عزّ وجلّ مقابل أن ينسب إليه سبحانه ما يليق به من الكمالات.

إنّ هذا المنهج الحذر في التّعامل مع أسماء الله وصفاته بعيدا عن التشبيه والتعطيل يؤكّد عناية ابن عربيّ بمبحث العقيدة لأنّها تشكّل في كلّ أمة المنطق الذي تنبثق عنه حضارتها ونظامها الاجتماعيّ وبمقدار ما تكون عقيدتها صحيحة يكون تقدّمها وإنسانيّتها وسعادة المجتمع البشريّ، والحجر الأساس في هذا كلّهُ الإيمان بالله ذاتا وصفاتا ومعرفة بأسمائه الحسنى على النّحو الذي لا تشوبه شائبة ولا يعتريه نقص أو إخلال أو تعطيل.

خاتمة:

وبعد هذا نخلص إلى جملة من النتائج أبرزها ما يلي:

❖ إبراز أنّ إرث ابن عربي لا يزال حاضرا حتى اليوم، حيث تستمر دراسة أعماله وأفكاره في إثراء الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامي وعليه يجب علينا الاستفادة من أفكاره المتعمّقة في فهم الوجود والعلاقة الروحية بين الإنسان وبين الله، لذا يجب أن نعطي أهميّة كبيرة لمساهماته العظيمة في تطوّر الفكر الإسلامي والإنسانيّ.

❖ توضيح أنّ للإنسان في تصوّر ابن عربي مكانة كونيّة وفاعليّة في الوجود تجعله يتخطّى العلاقة اللاهوتيّة الرسميّة ويصبح مؤهّلا لمرتبة الولاية لتظهر على يديه كرامات.

❖ بيان أنّ الوجود عند ابن عربي هو عالم صفاتيّ توجد فيه الصفة مستقلّة عن الموصوف ومضافة إليه ولا يستقلّ موصوف بصفته أبدا لأنّه إن استقلّ بصفته استغنى وخرج عن عبوديّته الذاتيّة فلو استقلّ إنسان مثلا بصفة الوجود لاستغنى في وجوده عن الله وحيث أنّ الواقع الشهوديّ يعطينا أنّ كلّ شيء هو معرّض للزوال وهو بالتالي ليس ذاتيا بل هو معار.

❖ التأكيد على أنّ صفات الإنسان هي حقائق مفردة أضيفت إليه على سبيل

الإعارة والإنسان يعيش في حالة افتقار لدوامها

❖ بيان أنّه ولو تعلّق الأمة وتحقّق وتخلّق بأسمائه تعالى وصفاته تحيا حياة

ملؤها الأمن والأمان والتّوازن والاستقرار والعزّة والشّموخ وتضرب موعدا مع التّاريخ فتكون خير خلف لخير سلف، ذلك أنّ تحقيق التعلّق والتحقّق والتخلّق بكلّ اسم من أسماء الله الحسنى تكون له آثار إيجابية على مستوى الأخلاق واستقامة المعاملات والمصارعة إلى الأعمال الصّالحة وفعل الخيرات فتنهض الأمة من جديد وتحقّق مشروعها الحضاري.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- البخاري، صحيح البخاري، تحقيق محمد بن زهير الناصر، دار طوق النجاة، بيروت- لبنان، د.ت.
- بلاتيسوس، آسين، ابن عربي: حياته، مذهبه، ترجمة عبد الرحمان بدوي، الكويت، 1970
- ديركي هيفرو، ابن عربي الأندلسي: سيرته وتجديده في الفكر الصوفي، دمشق، 2008
- الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، 1985
- ابن عربي، شجرة الكون، تحقيق رياض العبدلله، ط2، 1985.
- ابن عربي، الفتوحات المكية، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1999.
- ابن عربي، كشف المعنى عن سرّ أسماء الله الحسنى، تقديم حسن الممدوح، منشورات بخشايش، د.ت.
- كوربان، هنري، الخيال الخلاق في تصوّف ابن عربي، ترجمة فريد الزّاهي، منشورات الجمل، د.ت.
- مسلم، صحيح مسلم، تحقيق محمّد فؤاد عبدالباقى، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، د.ت.
- النووي، المنهاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1392هـ